موسوعة

المبدعون

المدح

في الشعر العربي

إعداد

سراج الدين محمد

دار الراتب الجامعية

DAR EL-RATEB AL-JAMIAH

دار الراتب الجامعية

© حقوق الطبع والنشر والاقتباس مملوكة لدار الراتب الجامعية يحظر تصوير جزء أو برنامج من هذا الكتاب، أو تخزينه بأي وسيلة خزن أو طبع دون الحصول على اذن خطي ممهور وموقع من ادارة النشر بدار الراتب الجامعية في بيروت

الناشر:

دار الراتب الجامعية: بيروت/لبنان

سلاسل سوفنير

ص.ب ١٩/٥٢٢٩ بيروت - لبنان

تلكس: Rateb - LE 43917

تلفون: 862480 - 313923 - 317169

المديح

في الشعر العربي

أشهر ما قيلَ في المديح

أيهـــا المـــادحُ العبـــادَ ليُعْطـــى
إن للَّـــهِ مـــا بـــأيـــدي العبـــادِ
فـــاســـألِ اللَّـــهَ مـــا طلبـــتَ إليهـــم
وارجُ نفْـــعَ المنـــزلِ العَـــوادِ
لا تَقُـــلْ فـــي الجـــوادِ مـــا ليـــس فيـــهِ
وتُسمِّـــي البخيـــلَ بـــإســـم الجـــوادِ

نقدم لك أخي القارىء في هذا الكتاب مجموعة من أشهر ما قيل في المديح في الشعر العربي في مختلف العصور. تقرأ فيه أشعار جماعة من أشهر الشعراء وتطلع فيه على أجمل الصور الفنية التي رسم فيها الشعراء ممدوحيهم.

إن هذا الكتاب لا يضم إلا النذر القليل القليل مما قاله الشعراء العرب في المديح، لأنه لا يتسع لذلك الكم الضخم من المديح الذي نجده مبعثراً في دواوين الشعراء، يكاد لا يوجد شاعر لم ينظم في المديح، فإذا تجنب مدح الأشخاص فإنه لا بد مدح بلداً أو مذهباً معيناً.

المديح

المديح لغة هو حسنُ الثَّناء، لهذا لاقى المديح أرضاً خصبة في كل الآداب خاصة وإن الإنسان بطبيعته يميل إلى الثناء ويسعد بألفاظ المديح.

والمديح من أكثر الفنون الأدبية شيوعاً، مال إليه معظم الشعراء ونظموا فيه القصائد الكثيرة التي تعدد مآثر الفرد أو الجماعة.

أما المعاني التي يدور حولها شعر المديح فكانت مستمدة من بيئة العرب الصحراوية ومجتمعهم الذي يعتمد على الفروسية، فكان الشعراء يمدحون بالجود والعِزة والشجاعة والإباء والفتك بالأعداء وإكرام الضيف ورعاية حقوق الجار وصفاء النسب. أي أن المديح كان يهتم في المقام الأول بمدح القيم الإنسانية للمحافظة عليها وترسيخها في النفوس. من هنا نؤكد أن للشعر وظيفة أخلاقية تربوية.

في الجاهلية كان المدح جماعياً أكثر منه فردياً وكان يمتاز بالصدق والعفوية، لكنه في العصور التالية أصبح تكسبياً وأصبح الشاعر يتفنن في استعاراته وتشابيهه لدرجة الغلو. والجدير بالذكر أن المديح قيل أولاً لمجرد الإعجاب الصادق ثم قيل للشكر ثانياً وأخيراً قيل للتزلف والتكسب. فأصبح مهنة تدر الكثير من المال.

لم يكن في الجاهلية قصائد مديح مستقبلة، بل كان المدح جزءاً من قصيدة تبدأ بالغزل ثم بالفخر ثم بالمديح ثم بالوصف ثم بالخمر وما إلى ذلك ولم يتخذ المديح استقلالية خاصة إلا في العصور التالية. كما وأن المديح تشعب من مدح أفراد وجماعات إلى مدح المدن ومدح الأحزاب والفرق.

المديح في الجاهلية

نظم شعراء العرب في المديح منذ الجاهلية بدافع الإعجاب بالفضائل المتعارف عليها. فكان همُّ الشاعر أن يرفع من شأن قبيلته وأحلافها والتغني بالكرم وحسن الضيافة والبطولة والشرف والعرض وصحة النسب.

كان للشاعر في الجاهلية مكانة كبيرة لدى الملوك والعظماء وكانت القبيلة تفتخر بولادة شاعر فيها يرفع من شأنها ويهاجم أعداءها.

تطور فن المديح في الجاهلية وأصبح صناعة يبيعها الشعراء عند أعتاب الملوك والزعماء، وأدرك هؤلاء أثر الشعر في تحقيق أهدافهم فقربوا الشعراء وأغدقوا عليهم المال، خاصة المناذرة والغساسنة ففتحوا قصورهم للشعراء الذين تنافسوا في مدحهم واستطابوا ترف العيش.

زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان:

بــلِ اذكُــرَنْ خيــرَ قيــسٍ كلهــا حسبــاً
وخيــرَهــا نــائــلاً وخيــرهــا خُلُقــا

وذاك أحــــزمهــــم رأيــــاً إذا نبــــأٌ
مــن الحــوادثِ آبَ النــاس أو طــرقــا

قــد جعــل المبتغــونَ الخيــرَ فــي هــرمٍ
والســائلــونَ إلــى أبــوابــه طُــرُقــا

مــن يلــقَ يــومــاً علــى عــلاّتِــهِ هَــرِمــاً
يلــقَ السمــاحــةَ منــهُ والنــدى خُلُقــا

لــو نــال حــي مــن الــدنيــا بمنــزلــةٍ
وســط السمــاء لَنَــالَــتْ كفُّــهُ الأُفْقــا

ويقول أيضاً في مدح سنان والد هرم:

لــو كــان يخلُــدُ أقــوامٌ بمجــدِهِــم
أو مــا تقــدَّمَ مِــنْ أيــامِهــم خَلَــدوا

أو كــان يقعُــدُ فــوقَ الشمــسِ مــن كــرَمٍ
قــومٌ بــأوّلهــم أو مجــدهــم قعــدُوا

قــومٌ أبــوهــم سِنَــانٌ حيــن تنسِبُهُــم
طــابــوا وطــاب مــن أولاد مــا وَلَــدُوا
إنــسٌ إذا أمِنُــوا جِــنٌّ إذا غضبــوا
مُــرزؤون بهــاليــلٌ إذا جُهِــدُوا

زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذين سعيا في الصلح بين عبس وذبيان يوم حرب السباق واللذين حقنا الدماء وتحملا الديات:

سعــى ســاعيــاً غيْــظِ بــن مُــرَّةَ بعــدمــا
تبــزل مــا بيــن العشيــرةِ بــالــدمِ
فــأقسمــتُ بــالبيــتِ الــذي طــاف حــولُــه
رجــال بَنُــوْهُ مــن قــريــشٍ وجــرهــمِ
يمينــاً لَنِعِــمَ السيــدانِ وُجــدتُمــا
علــى كــل حــالٍ مــن سحيــلٍ ومُبــرَمِ
تــداركتمــا عبســاً وذبيــان بعــدمــا
تفــانــوا ودقــوا بينهــم عطــرَ منشِــمِ
عظيميــنِ فــي عليــا معــدٍّ هُــدِيتُمــا
ومــن يسْتَبِــحْ كنــزاً مــن المجــدِ يعظــمِ

وقال يمدح حصن بن حذيفة:

أخــي ثقــةٍ لا تُتْلِــفُ الخمــرُ مــا لَــهُ
ولكنَّــهُ قــد يُهلِــكُ المــالَ نــائِلُــهْ
تــراهُ، إذا مــا جِئْتَــهُ، متهلــلاً
كــأنــك تعطيــهِ الــذي أنــت ســائِلُــهْ

أعشى قيس يمدح شريح وهو من أبناء السموأل:

شُـريـحُ لا تتـركَنّـي بعـد مـا علقَـتْ
حبـالُـكَ اليـومَ بعـد القـدِّ أظفـاري

فقـد طُفْـتُ مـا بيـن بـانقيـا إلـى عـدنٍ
وطـال فـي العجـم تـرحـالـي وتسيـاري

فكـان أوفـاهـم عهـداً وأمنعهُـم
جـاراً أبـوك بعُـرفٍ غيـرِ إنكـار

كـالغيـثِ مـا استمطـروه جـاد وابِلُـهْ
وعنـد ذمَّتِـهِ المستـأسْـدُ الضـاري

الأعشى يمدح هَوْذَةَ بن علي سيد بني حنيفة:

إلـى هـوذَة الـوهـابِ أهـديـتُ مـدحتـي
أُرَجِّـي نـوالاً فـاضـلاً مـن عطـائكـا

سمعـتُ بـرحـبِ البـاعِ والجـود والنـدى
فـأدليـتُ دلـوي فـاستقـتْ بـرشـائكـا

فتـى يحمـل الأعبـاءَ لـو كـان غيـرُهُ
مـن النـاس لـم ينهـضْ بهـا متمـاسكـا

وأنـتَ الـذي عَـوَّدتنـي أن تـرِيشنـي
وأنـتَ الـذي آويتنـي فـي ظـلالكـا

وإنـك فيمـا نـابنـي بـي مـوزعٌ
بخيـرٍ وإنـي مـولـعٌ بثنـائـك

الأعشى يمدح المحلّق الكلابي:

لعمـــري قـــد لاحـــتْ عيـــونٌ كثيـــرةٌ
إلـــى ضـــوء نـــارٍ فـــي يفـــاعٍ تحـــرَّقُ
تُشَـــبُّ لمقـــروريـــن يصطليـــانهـــا
وبـــات علـــى النـــار النـــدى والمحلَّـــقُ
رضيعـــي لبـــان ثـــدي أمٍ تعـــاهـــدا
بـــأسْحَـــمَ داج: عَـــوْضَ لا تتفـــرَّقُ
يـــداك يـــدا صـــدقٍ فكـــفٌ مفيـــدةٌ
وكـــفٌ إذا مـــا ضُـــنَّ بـــالـــزاد تُنْفِـــقُ
تـــرى الجـــودَ يجـــري ظـــاهـــراً فـــوق وجهـــه
كمـــا زان متـــنُ الهنـــدوانـــي رَوْنَـــقُ

الأعشى يمدح الأسود بن منذر اللخمي وهو من أخوة النعمان بن المنذر:

وصِـــلاتُ الأرحـــامِ قـــد عَلِـــمَ النـــا
سُ وفَـــكُّ الأســـرى مـــن الأغـــلالِ
وهـــوانُ النفـــسِ العـــزيـــزةِ للـــذكـ
ـــرِ إذا مـــا التقـــتْ صـــدورُ العـــوالـــي
وعطـــاءٌ إذا ســـألْـــتَ إذا العِـــذْ
رةُ كـــانـــت عَطِيَّـــةَ البُخَّـــالِ
ووفـــاءٌ إذا أجْـــرْتَ فمـــا عُـــرَّ
تْ حِبـــالٌ وَصَلْتَهـــا بحبـــالِ
أريحـــيٌّ صَلْـــتٌ يظـــلُّ لـــه القَـــوْ
مُ رُكـــوداً قيـــامُهُـــم للهـــلالِ

النابغة الذبياني يمدح الملك الغساني عمرو بن الحارث وقومه بعد هربه من النعمان بن المنذر:

كلِينـي لَهُـمْ، يـا أُمَيْمَـةُ، نـاصِـبِ
وليـلٌ أقـاسيـهِ بطـيءُ الكـواكـبِ

عَلَـيَّ لعَمْـرو نِعمـةٌ بعـد نِعمـةٍ
لـوالـده، ليسـت بـذاتِ عقـاربِ

وثقـتُ لـه بـالنصـرِ، إذ قيـلَ قـد غَـزَتْ
كتـائِـبُ مـن غسـان، غيـرُ أشـائِـبِ

إذا مـا غَـزَوْا بـالجيـشِ حلَّـقَ فـوقهـم
عصـائـبُ طيـرٍ تهتـدي بعصـائـبِ

ولا عيـبَ فيهـم غيـر أن سيـوفَهـم
بهـن فلـولٌ مـن قـراع الكتـائـبِ

يمدح النعمان الغساني:

فـإنـكَ شمـسٌ والملـوكُ كـواكـبٌ
إذا طلَعْـتَ لـم يبْـدُ منهـن كـوكـبُ

فـإنـك كـالليـل الـذي هـو مـدركـي
وإن خِلْـتُ أنّ المنتـأى عنـك واسـعُ

عروة بن الورد يمدح مالك بن حمار الفزاري:

جـزى اللَّـهُ خيـراً، كلمـا ذُكِـرَ اسمُـهُ
أبـا مـالـك، إن ذلـكَ الحـيُّ أصْعَـدُوا

وزوَّدَ خيـــراً مـــالكـــاً، إنّ مـــالكـــاً
لـــه رِدَّةً فينـــا، إذا القـــومُ زُهَّـــدُ

عروة بن الورد يمدح سيد القوم ربيع:

لكـــلّ أنـــاسٍ سيـــدٌ يعـــرفـــونـــه وسيـــدُنـــا حتـــى الممـــات ربيـــعُ
إذا أمـــرتنـــي بـــالعُقـــوقِ حليلتـــي فلـــم أعصهـــا، إنـــي إذا لَمَضْيـــعُ

قُرَيْط بن أُنَيْف يمدح:

قـــومٌ إذا الشـــرُّ أبـــدى نـــاجـــزيـــه لهـــم
طـــاروا إليـــه زرافـــاتٍ ووحـــدانـــا
لا يســـألـــون أخـــاهـــم حيـــن ينـــدبهـــم
للنـــائبـــات علـــى مـــا قـــال بـــرهـــانـــا

امرؤ القيس يمدح مناصريه:

ســـأشكُـــرُكَ الـــذي دافعـــتَ عنـــي ومـــا يجـــزيـــكَ منـــي غيـــرُ شُكْـــري
فـــأبلـــغْ مَعَـــدّاً والعبـــادَ وطَيِّـــاً وكنـــدَةَ إنـــي شـــاكـــرٌ لبنـــي ثُعَـــلِ

حسان بن ثابت يمدح أمراء البلاط الغساني قبل الإسلام:

يُغْشَـــونَ حتـــى مـــا تَهِـــرُّ كِـــلابهُـــم
لا يســـألـــونَ عـــنِ الســـوادِ المقبـــلِ

يسقـــونَ مَـــنْ وَرَدَ البـــريـــصِ عليهـــم
بَـــرَدَى يُصَفِّـــقُ بـــالـــرحيـــقِ السلسـلِ
بيـــضُ الـــوجـــوهِ، كـــريمـــةٌ أحســـابُهـــم
شُـــمُّ الأنـــوفِ مِـــنَ الطـــرازِ الأوّلِ

الحطيئة يمدح آل شماس في قصيدته الدالية التي تعتبر من خير ما قاله الجاهليون في المدح:

ألا طـــرقتنـــا بعـــدمـــا هجعـــوا هنـــد
وقـــد ســـرن خمســـا واتـــلأب بنـــا نجـــدْ
أتـــت آل شمـــاس بـــن لأي وإنمـــا
أتـــاهـــم بهـــا الأحـــلام والحســـبُ العـــدْ
فـــإنّ الشقـــيَّ مـــن تعـــادي صـــدورُهـــم
وذو الجـــد مـــن لانـــوا إليـــه ومـــن ودوا
يســـوســـون أحـــلامـــاً بعيـــداً أنـــاتهـــا
وإن غضبـــوا جـــاء الحفيظـــةُ والجـــد
أقلـــوا عليهـــم لا أبـــا لأبيكـــم
مـــن اللـــوم أو ســـدوا المكـــان الـــذي ســـدوا
أولئـــك قـــوم إن بنـــوا أحســـنـــوا البنـــا
وإن عـــاهـــدوا أوفـــوا وإن عقـــدوا شـــدوا
وإن كـــانـــت النعمـــى عليهـــم جـــزوا بهـــا
وإن أنعمـــوا لا كـــدروهـــا ولا كـــدوا
وإن قـــال مـــولاهـــم علـــى جـــل حـــادثٍ
مـــن الـــدهـــر ردوا بعـــض أحـــلامكـــم ردوا

مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى
بنى لهم آباؤهم وبنى الجد
وقد لامني أبناء سعد عليهم
وما قلتُ إلا الذي علمتْ سعدُ

دريدُ بن الصمة يمدح أنس بن مدركة الخثعمي لفك أسرى قومه:

فأنتم أهلُ عائدةٍ وفضلٍ وأيدٍ في مواهِبِكُم طوالِ
متى ما تمنعوا شيئاً فليستْ حبائلُ أخذهِ غيرَ السؤالِ

طرفة بن العبد يمدح قتادة بن سلمى:

أبْلِغْ قَتَادَةَ، غيرَ سائلِهِ مِنْهُ الثَّوَابَ وعاجِلَ الشُّكْمِ
أنِّي حَمِدْتُكَ للعشيرةِ، إذْ جاءتْ إليكَ مُرِقَّةَ العَظْمِ
ألقَوْا إليكَ بِكُلِّ أرمَلَةٍ شعثاءَ، تحملُ مَنْفَعَ البُرمِ
فَفَتَحْتَ بابَكَ للمكارمِ، حينَ تواصَتْ الأبوابُ بالأَزْمِ
فسقى بلادكَ، غيرَ مُفْسِدِها صوبُ الغمامِ، ودِيمَةٌ تُهْمِي

كعب الأشقري:

ملوكٌ ينزلون بكل ثغرٍ
إذا ما الهامُ يوم الرَّوعِ طارا
رزانٌ في الأمور ترى عليهم
في الشيخ الشمائلَ والنجارا
نجومٌ يُهتدى بهمُ إذا ما
أخو الظلماءِ في الغمرات جارا

عنترة بن شداد يمدح الملك زهير بن جذيمة العبسي:

واتكالي على الذي لكما أبصر ... ذُلِّي يزيد في تعظيمي
ومعيني على النوائب ليثٌ ... هو ذُخري وفارجٌ لهمومي
ملكٌ تَسْجُدُ الملوكُ لذكرا ... هُ وتومي إليه بالتفخيم
وإذا سار سابقتْهُ المنايا ... نحو أعداهُ قبلَ يومِ القدوم

عنترة بن شداد يمدح جماعة من أصحابه وتنسب هذه الأبيات إلى الشريف الرضي في بعض المصادر:

وحَوْليَ من دونِ الأنامِ عِصابَةٌ
تَوَدُّدُها يخفى، وأضغانها تبدو
ولا عاشَ إلا من يصاحبُ فتيةً
غضاريفَ لا يعنيهم النحسُ والسَّعدْ
إذا طولِبوا يوماً إلى الغزو وشمَّروا
وإن نُدِبوا يوماً إلى غارةٍ جَدّوا
ويصحبني من آلِ عبسٍ عِصابةٌ
لها شرفٌ بين القبائل يمتدْ
بها ليلُ مثلُ الأسدِ في كلِّ موطنٍ
كأن دَمَ الأعداءِ في فمهم شَهْدْ

وقال يمدح الملك الفارسي كسرى أنوشروان:

يا أيها الملكُ الذي راحاتُهُ
قامتْ مقام الغيثِ في أزمانِهِ

يـــا قبلـــةَ القُصَّـــادِ، يـــا تـــاج العُـــلا
يـــا بـــدرَ هـــذا العصـــر فـــي كيـــوانِـــهِ
يـــا مُخجـــلاً نـــوءَ السمـــاءِ بجـــوده
يـــا منقـــذ المحـــزون مـــن أحـــزانـــه
يـــا ســـاكنيـــن ديـــارَ عبـــسٍ إننـــي
لاقيـــتُ مـــن كســـرى ومـــن إحســـانـــه
مـــا ليـــس يُـــوصـــفُ أو يقـــدرُ أو يفـــي
أوصـــافَـــهُ أحـــدٌ بـــوصـــفِ لســـانـــه
فـــلأشكـــرنّ صنيعَـــهُ بيـــن المـــلا
وأطـــاعـــن الفـــرســـانَ فـــي ميـــدانـــه

أبو كبير الهزلي يمدح تأبط شراً:

وإذا نظـــرتَ إلـــى أسِـــرَّةِ وجهِـــهِ
بَـــرَقَـــتْ كبـــرقِ العـــارضِ المتهلـــلِ
صعـــبُ الكـــريهـــةِ لا يـــرامُ خبـــابُـــهُ
مـــاضـــي العـــزيمـــةِ كـــالحســـامِ المِقْصَـــلِ

المديح في صدر الإسلام

مع الإسلام طرأ تطور على شعر المديح لأن الفضائل التي كان الجاهلي يتغنى بها دخل عليها التعديل من وجهة النظر الإسلامية. وبما أن القيم الإسلامية جاءت لتحل مكان القيم الجاهلية فقد كانت بحاجة إلى من يعززها ويتغنى بها، فقام الشعراء بهذا الدور يمدحون الرسول ﷺ ويدافعون عن الإسلام.

مع الإسلام استمر المدح الذي يتغنى بالفضائل الثابتة ودخلته تشعبات متنوعة تمدح الرسول ﷺ وقادة الفتوحات، ودخلته معان جديدة كالعدل وإيتاء الزكاة والصلاة والحج والصوم والجهاد والتقوى كدليل لاتباط الشعر عامة بالواقع.

مع انتشار الإسلام خفت صوت الشعر عموماً لأن الناس شغلوا بالدين الجديد عن الشعر وشغلهم القرآن بفصاحته كما انشغلوا بالفتوحات.

نشير إلى أن الإسلام لم يحرم الشعر إلا ما كان منه يحرض على الموروثات الجاهلية التي حرمها الوحي. وقد استمع الرسول ﷺ إلى الشعر وخاصة الذي يعبر عن مثاليات الإسلام، وكان له شاعره الخاص حسان بن ثابت الذي دافع عن الإسلام.

العباس بن المطلب يتحدث عن الرسول مُذْ كان نطفة حتى مولده:

مـــن قبلهـــا طبـــت فـــي الظـــلام وفـــي
مستـــودع حيـــث يخصـــف الـــورق
ثـــم هبطـــت البـــلاد لا بشـــر أنـــت
ولا مضغـــــــــة ولا علـــــــــق
بـــل نطفـــة تـــركـــب السفيـــن وقـــد
ألجـــم نســـرا وأهلـــه الغـــرق
تنقـــل مـــن صـــالـــب إلـــى رحـــم
إذا مضـــى عـــالـــم بـــدا طبـــق
حتـــى احتـــوى بيتـــك المهيمـــن مـــن
خنـــدف عليـــاء تحتهـــا النطـــق
وأنـــت لمـــا ولـــدت أشـــرقـــت الأرض
وضـــــاءت بنـــــورك الأفـــــق
فنحـــن فـــي ذلـــك الضيـــاء وفـــي
النـــور وسبـــل الـــرشـــاد نختـــرق

زهير بن صرد يمدح النبي:

أمنـــن علينـــا رســـول اللّـــه فـــي كـــرم .
فـــإنـــك المـــرءُ نـــرجـــوه ونـــدخـــر

يـــا خيـــر طفـــل ومـــولـــود ومنتخـــب
فـــي العـــالميـــن إذا مـــا حصـــل البشـــر

النابغة الجعدي يمدح النبي:

خليلـــي عـــوجـــا ســـاعـــة وتهجـــرا
ولـومـا علـى مـا أحـدث الـدهـر أو ذرا
أتيـــت رســـول اللَّـــه إذا جـــاء بـــالهـــدى
ويتلـــو كتـــابـــاً كـــالمجـــرة نيـــرا

حسان بن ثابت يمدح النبي:

أغـــرُّ عليـــهِ للنبـــوةِ خـــاتـــمٌ
مـــن اللَّـــهِ مشهـــودٌ يلـــوحُ ويُشهَـــدُ
وَضَـــمَّ الإلـــهُ إســـمَ النبـــي إلـــى إسمِـــهِ
إذ قـــال فـــي الخمـــس المـــؤذِّنُ أشهـــدُ
وشـــقّ لـــه مـــن إسمـــه لِيُجِلَّـــهُ
فـــذو العـــرشِ محمـــودٌ وهـــذا محمـــدُ
نبـــيٌ أتـــانـــا بعـــدَ يـــأسٍ وفتـــرةٍ
مـــن الـــرُّســـلِ، والأوثـــانُ فـــي الأرضِ تُعبـــدُ
فـــأمســـى ســـراجـــاً مستنيـــراً وهـــاديـــاً
يلـــوحُ كمـــا لاح الصقيـــلُ المهنَّـــدُ